

تفسير البحر المحيط

@ 14 @ عَقَبِيهِ لَعَلَّاهُمْ يَرْجِعُونَ } ، فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق ، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد . وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم ، لأنه إذا متعتهم بزيادة النعم ، وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً ، فمثاله : أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول : أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله . فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية للتمتع ، ثم أردفه قوله : { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ } ، فما طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت : المراد بالتمتع : ما هو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته . فقال عز وعلا : بل اشتغلوا عن التوحيد { حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ } ، فخیل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه . .

ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ } ، جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها ، وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ومعاداته ، والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة ، والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد صلى الله عليه وسلم) من أهل زمانه بقولهم : { لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرَسِ يَتَّبِعُونَ عَظِيمٍ } ، وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم . انتهى ، وهو حسن لكن فيه إسهاب . والضمير في : وقالوا ، لقريش ، كانوا قد استبعدوا أن يرسل الله من البشر رسولاً ، فاستفاض عندهم أمر إبراهيم وموسى وعيسى ، وغيرهم من الرسل صلى الله عليه وسلم . فلما لم يكن لهم في ذلك مدفع ، ناقضوا فيما يخص محمداً صلى الله عليه وسلم) فقالوا : لم كان محمداً ، ولم يكن القرآن ينزل على رجل من القريرتين عظيم ؟ أشاروا إلى من عظم قدره بالسن والقدم والجاه وكثرة المال . وقرء : على رجل ، بسكون الجيم . من القريرتين : أي من إحدى القريرتين . وقيل : من رجل القريرتين ، وهما مكة والطائف . قال ابن عباس : والذي من مكة : الوليد بن المغيرة المخزومي ، ومن الطائف : حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي . وقال مجاهد : عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل . وقال قتادة : الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي . قال قتادة : بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه ، وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش ، وكان يقول : لو كان ما يقول محمد حقاً لنزل عليّ أو على ابن مسعود ، يعني عروة بن مسعود ،

وكان يكنى أبا مسعود . .

{ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ } ؟ فيه توبيخ وتعجيب من جهلهم ، كأنه قيل :
على اختيارهم وإرادتهم تقسم الفضائل من النبوة وغيرها . ثم في إضافته في قوله : {
رَحْمَةً رَبِّكَ } ، تشريف له صلى الله عليه وسلم) ، وأن هذه الرحمة التي حصلت لك ليست
إلا من ربك المصلح لحالك والمربيك . ثم أخبر تعالى أنه هو الذي قسم المعيشة بينهم ، فلم
يحصل لأحد إلا ما قسمه تعالى . وإذا كان هو الذي تولى ذلك ، وفاوت بينهم ، وذلك في الأمر
الفاني ، فكيف لا يتولى الأمر الخطير ، وهو إرسال من يشاء ، فليس لكم أن تتخيروا من يصلح
لذلك ، بل أنتم عاجزون عن تدبير أموركم . وقرأ الجمهور : معيشتهم ، على الأفراد ؛ وعبد
الله ، والأعمش ، وابن عباس ، وسفيان : معائشهم ، على الجمع . والجمهور : سخرىً ، بضم
السين ؛ وعمرو بن ميمون ، وابن محيصن ؛ وابن أبي ليلى ، وأبو رجاء ، والوليد بن مسلم ،
وابن عامر : بكسرهما ، وهو من التسخير ، بمعنى : الاستعباد والاستخدام ، ليرتفق بعضهم
ببعض ويصلوا إلى منافعهم . ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ، ما أطاق ذلك وضاع
وهلك . ويبعد أن يكون سخرىً هنا من الهزء ، وقد قال بعضهم : أي يهزأ الغني بالفقير .
وفي قوله : { زَحْنٌ قَسَمْنَا } ، تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا ، وهون على التوكل
على الله . وقال مقاتل : فاضلنا بينهم ، فمن رئيس ومرؤوس . وقال قتادة : تلقى ضعيف القوة
، قليل الحيلة ، غني اللسان ، وهو مبسوط له ؛ وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان ، وهو
مقتر عليه . وقال الشافعي ، رحمه الله